

ضياء خضير ناقدا للشعر العراقي الحديث

Dia Khudair, a critic of modern Iraqi poetry

الباحثة هديل سالم شنان

أ. د. عصام عسل حسن

Hadeel Salem Shannan

Proof. Dr. Essam Assal Hassan

كلية الآداب/الجامعة المستنصرية

Alrmanghsn992@gmail.com

Dr.isamalasal@uomustansiriyah.edu.iq

ملخص البحث:

ولا مناص من القول أن ضياء خضير قدم أعمال الشاعرين سعدي يوسف وحמיד سعيد الى جمهور من القراء العرب؛ على شهرة هذين الشاعرين غير أن كتابي ضياء خضير قد شكلا نافذة أخرى ينفذ شعرهما من خلالها.

شكّل كتابا ضياء خضير نقدا تطبيقيًا، من خلال التحليل النصي لقصائد الشاعرين، اذ انتقى فيها المؤلف قصائد مختلفة من نتاج الشاعرين العراقيين، لم يحدد ضياء خضير أسباب انتقائه لتلك القصائد دون غيرها، سوى انها من مستجد أشعارهما، أما عن سبب انتقائه لهذين الشاعرين دون غيرهم، فيعود ذلك الى رابطة الصداقة التي تجمعهم.

إن أبرز ما امتاز به نقد ضياء خضير انه يوظف المقارنات في محاولاته تحليل المختارات الشعرية من نصوص الشاعرين، وما انجزه ضياء خضير في دوحة الكستناء من محاولات، لا يختلف عن محاولاته التحليلية في المعلة البغدادية.

ينسلت من مسؤولية تحديد المنهج الذي سيسلكه في محاولاته لتحليل قصائد الشاعرين بعيدا عن أية مزاعم منهجية مسبقة وادعاءات زائدة وألأعيب نقدية غير ضرورية، كما أظهر ضياء خضير ميلا غير مباشر لدراسة الشاعرين دراسة، بمعزل عن الانتماءات والسياقات الأخرى المحيطة بنصوص الشاعرين، ويجعل محاولاته تلك ضربا من الحوار مع النفس، أو الكتابة للذات نفسها، مؤكدا انه لا يتحدث عن نظريات ومناهج نقدية.

الكلمات المفتاحية: النقد – نقد النقد – المقارنة الأدبية – الكسثناء – معلقة

Abstract

It is inescapable to say that Diaa Khudair presented the works of the poets Saadi Youssef and Hamid Saeed to an audience of Arab readers. Despite the fame of these two poets, the two books of Diaa Khudair have formed another window through which their poetry runs out.

He formed a book, Diaa Khudair, as an applied criticism, through textual analysis of the poems of the two poets, in which the author selected different poems from the production of the two Iraqi poets. This is due to the strength of friendship that binds them.

The most prominent characteristic of Dia Khudair's criticism is that it employs comparisons in its attempts to analyze the poetic selections from the texts of the poets, and what Dia Khudair accomplished in Dohat Chestnut is no different from his analytical attempts in the Baghdadi Mu'allaha.

He shies away from the responsibility of defining the approach he will take in his attempts to analyze the poems of the two poets away from any prior methodological allegations, redundant claims, and unnecessary critical tricks, just as Diaa Khudair

showed an indirect tendency to study the poets in a study, in isolation from the affiliations and other contexts surrounding the texts of the poets, and makes his attempts a kind of Dialogue with oneself, or writing for oneself, stressing that he does not talk about critical theories and approaches.

Keywords: criticism – criticism of criticism – literary comparison – chestnuts – hanging

سيرة ناقد:

ولد ضياء خضير في محافظة ذي قار تحديداً في مدينة الشطرة عام ١٩٤٥، بيت صغير في الشطرة وغرف طينية كفلت لهذا الناقد طفولة مليئة بتساؤلات عن أشياء مختلفة وفتحت عينيه على ما تتطوي عليه الدنيا من فوارق طبقية واختلافات اجتماعية وأقدار مقدرة.

يبدو أن ثقافة ضياء خضير الطفل هي ثقافة تغذت من المجالس الحسينية وشعر الرثاء العامي والفصيح والبكائيات الحزينة حيث وجد فيها تعبيراً عن واقعه الاجتماعي والشخصي قبل أن يكون سرداً للمأساة الحسينية.

دخل ضياء خضير كلية التربية في جامعة بغداد عام ١٩٦٣، ولم يفضل شيئاً على قسم اللغة العربية، وقد أحب الدراسة فيه، تتلمذ على يدي نازك الملائكة وعاتكة الخزرجي ومصطفى جواد وغيرهم ممن بذروا في ذاته قراءة النص القديم باحترام وحذر من الخطأ في اللغة ومن اللحن فيها.

غادر ضياء خضير العراق عام ١٩٩٩، ليدرس في إحدى الجامعات الأردنية (خضير، ٢٠٢٢، الصفحات ١٩-٥٥)، وتنقل بعدها إلى أكثر من بلد، ليستقر في كندا.

نقد النقد بين المنظرين:

يعد نقد النقد من الحقول المعرفية المعاصرة التي بلغت في ستينيات القرن المنصرم، وتبلورت مفاهيمه في ثمانينيات ذلك العصر.

- فما هو مفهوم نقد النقد؟
- وما الفرق بين النقد ونقد النقد؟

لعل أبسط تعريفات النقد ما ذكر في معجم المصطلحات الأدبية "علم تفسير النصوص الأدبية وتحليلها وتصنيفها وتقويمها والحكم عليها حسب الأصول والقواعد للمذهب النقدي الذي ينتمي اليه الناقد" (نصار، ٢٠٠٩، صفحة ٣٣٨).

وفي رؤية أخرى هو "عملية تنظيرية للإبداع من حيث يكون النقد التطبيقي عملية يتجسد فيها تطبيق التنظير" (مرتاض، ٢٠٠٦، صفحة ٧١).

ولا يخفى ان موضوع نقد النقد أوسع وأشمل من النقد، فنقد النقد نشاط معرفي ينصرف الى مراجعة الأقوال النقدية كاشفا عن سلامة مبادئها النظرية وأدواتها التحليلية وإجراءاتها التفسيرية، وأينما وجد الإبداع وجد النقد، وإن كان النقد يقوم على الإبداع (النص الأول) شعرا كان أم نثرا، فالنص النقدي (النص الثاني) هو نص لا يخلو من إبداع أيضا، لذا لا ينبغي تحصينه من النقد الذي سيشكل في حينها (نصا ثالثا) أو نصا واصفا للنص الثاني، أي أن نقد النقد هو الذي يضع عبارات النقد موضع الفحص والمساءلة والوصف.

ونقد النقد ممارسة ثقافية معاصرة تروم وضع الخطابات النقدية موضع المسائلة والفحص لغاية الكشف عن هوية العلاقات التي تربط بين عناصر تلك الخطابات، وكذلك السعي الى الكشف عن الهويات الحقيقية لتلك الخطابات، مما يؤذن باكتشاف الوظائف المتعددة التي قامت بها تلك الخطابات في سياقاتها الثقافية والاجتماعية. (احمد، ٢٠٠٨، صفحة ٦)

ويرى الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض "ان نقد النقد شكل معرفي مكمل للنقد ومهدى من طوره وضابط لمساراته فكما انه كان للمبدعين من الساردين والشعراء نقاد ينقدونهم، فقد وجب وجود نقاد كبار ينقدون أولئك الذين ينقدون". (مرتاض، ٢٠٠٦، صفحة ٢٥٦)

وفي قول آخر في نقد النقد لجابر عصفور: "نشاط معرفي ينصرف الى مراجعة الأقوال النقدية كاشفا سلامة مبادئها النظرية وأدواتها التحليلية وإجراءاتها التفسيرية". (عصفور، ١٩٩١، صفحة ١١)

ويمكن القول إن نقد النقد يدور حول مراجعة القول النقدي ذاته وكذلك فحصه، وقد أصبحت كلمة نقد تعني الحكم "والحكم هو التمييز، والتمييز يتيح الفصل بين الأشياء... كما يكتسي النقد قيمة الغرلة في التمييز بين الحقيقي والمزيف معرفيا (إبستيمولوجيا)، وبين الصالح والفاقد قيميا (إكسيولوجيا)". (الزين، ٢٠١٨، صفحة ٨٠) ومن جميل ما ذكر في هذا المضمار "أننا نعتقد إن التصنيف بين الناقد وناقد النقد لا ينبغي له ان ينزلق نحو المفاضلة الساذجة فيقع الاعتقاد بأن ناقد الناقد (أو نقد النقد) سيكون بالضرورة أرقى وأفضل من النقد في مجال المعرفة، فالشأن هنا لا ينصرف الى تحديد المكانة والأفضلية، ولكن الى تحدي الماهية والوظيفة". (مرتاض، ٢٠٠٦، صفحة ٢٥٦)

ضياء خضير ناقدا للشعر العراقي الحديث:

مما لا شك فيه أن العراق موئل الشعر ومنهله، واحد اهم روافده التي لا تجف، بل هو اهم مصباته على مر العصور، إذ يتميز الشعر العراقي بتعدد تجاربه الهامة والمميزة، حيث لطالما كان خزاناً لغويا خصبا، إضافة إلى اتجاهه الدائم نحو التجديد والتجريب؛ مقدما أسماء عربية هامة في عالم الشعر، فقد برز منه مئات الشعراء الذين برزت أسماؤهم في هذا المضمار، وما اعقبوا من دواوين شعرية؛ تفيض بها المكتبات العربية، "لكون اغلب رواده من العراق وفي مقدمتهم بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي، فقد بلور هؤلاء الشعراء وغيرهم حركة الشعر الحديث، فامتد تأثير هذه الحركة الى الأقطار العربية الأخرى، فاصبح الشعر الحديث أحد أبرز الظواهر المهمة في حركة الأدب العربي". (ابراهيم، ١٩٨٨، صفحة ٢٢).

يحاول ضياء خضير مع منجز شاعرين كبيرين لهما حضورهما في راهن الثقافة العربية من خلال جهديهما المعرفي الذي امتد على بحر عدد من العقود، ونالت تجربتهما الشعرية اهتمام الدرس الأكاديمي ومتابعات النقد الرصين وانتباه المستعربين ودارسي الشعر العربي المعاصر، مما يقصر الكلام عنه وايفاء حقه في هذا الحيز المحدود، فأخرج كتابيه:

- سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة، دار الكتب والوثائق، بغداد، ٢٠٢٠.
- دار دجلة، عمان، ٢٠٢١.

وهما كتابان ذوا طبيعة نقدية تحليلية، يتشابهان في آلية الانتقاء والاشتغال والمنهج، وقد أشار الى ذلك ضياء خضير: "وما حاولت إنجاز في هذا الكتاب ذي الطبيعة النقدية التحليلية الخاصة، لا يختلف عن ذلك الذي حاولته في كتابي السابق عن سعدي يوسف؛ أعني الاحتفاء بقراءة الشاعر، من خلال قصيدته المفردة، لغة ومضمونا، أراهما متلازمين ولا سبيل إلى فك الارتباط بينهما؛ والهدف يبقى واحدا في الحالين: تقريب النص من أفق المتلقي وجعله أكثر فعالية وتأثيرا، بعيدا عن أية مزاعم منهجية مسبقة وادعاءات زائدة ومقدمات نقدية نظرية غير ضرورية بسبب إحساسي بملل القارئ منها وعدم تحمسه لها". (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، صفحة ١٢)

وكذلك كان من رأي الشاعر حميد سعيد في كتاب ضياء خضير (سعدي يوسف دوحة الكستناء) حيث كتب رأيته في رسالة بعث بها الى ضياء خضير "أكد لك، من دون مجاملة، أن مشروعك في قراءة القصائد منفردة بهذا الشكل، يفتح فضاء التلقي، ويمنح المتلقي فرصة الاقتراب من النص موضوعا وجمالا.. وإجمالا يشكل الكتاب اضافة الى ما كتب عن شاعرية سعدي يوسف، وهو كثير.. كثير". (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، صفحة ٨).

يقوم هذان الكتابان على النقد التطبيقي من خلال التحليل النصي لقصائد الشاعرين، ينتقي فيها ضياء خضير قصائد مختلفة دون أن يحدد أسباب انتقائه لتلك القصائد دون غيرها على وفرة نتاج هذين الشاعرين، سوى أنها من مستجاد أشعارهما. (خضير، سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة، ٢٠٢٠، صفحة ١٦)

أما في انتقائه لهذين الشاعرين من بين شعراء العراقيين فيعود ذلك الى تلك الوشائج التي جمعتهم فكان ما كان من رابطة الصداقة، حيث يذكر ضياء خضير ذلك في مقدمة كتابه (المعلقة البغدادية) الصداقة التي تربطه بالشاعرين وما كان بينهم من رسائل وذكريات، تخللتها بعض المواقف السياسية والأدبية، وغيرها من الأمور التي تكون بين الأصدقاء. (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، الصفحات ٧-٨)

ويجيب ضياء خضير عن تساؤل افتراضي "عن السبب الذي يدفع ناقدًا مثلي الى الجمع في الكتابة عن شاعرين يبدوان للكثيرين مختلفين في انتمائهما العقائدي والأيدولوجي، فضلا عن الاختلاف على منجزهما الإبداعي.

وجوابي عن ذلك ... كلاهما قامتان عراقيتان وعربيتان، وفيتين لتاريخيهما، أمينتين على الالتزام بالتراث الفكري والوجداني، الذي حركهما، منذ نشأتهما الفكرية الأولى، مثلما حرك غيرهما من الناس في العراق والوطن العربي باتجاه قيم ومبادئ إنسانية رفيعة، ولا ينبغي أن يقف الاختلاف بينهما في هذا الانتماء الأيديولوجي دون تقدير الدور الإبداعي، الذي أدياه لتطور الشعرية العراقية والعربية الحديثة، كل بطريقته المختلفة". (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، صفحة ٩)

من خلال هذا النص يظهر ضياء خضير ميلا غير مباشر لدراسة الشاعرين دراسة بمعزل عن الانتماءات والسياقات الأخرى المحيطة بنصوص الشاعرين، لكنه ينسب من مسؤولية تحديد المنهج الذي سيسلكه في محاولاته لتحليل قصائد الشاعرين، ويجعل محاولاته تلك ضربا من الحوار مع النفس، أو الكتابة للذات نفسها، "ولكي أكون واضحا وصريحا، لا بد لي من الاعتراف هنا إنني أكتب لنفسي قبل أن أكتب لغيري، وإذا كان لي أي ظل من معرفة نقدية، فإني أدعو القارئ هنا أن يشاركني فيها، مؤكدا له أنني لا أتحدث عن نظريات ومناهج نقدية قد يفهمها ولا يفهمها، فعملي في هذا الكتاب سيكون مقصورا على النص الشعري، أو ما وقع عليه اختياري منه، من أجل فهمه وتمثله بطريقة أفضل". (خضير، سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة، ٢٠٢٠، صفحة ١١).

لكن ذلك لم يتم في نقد ضياء خضير، حيث عرج على حياة الشاعر في نفس الصفحة وغيرها من نفس الكتاب. (خضير، سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة، ٢٠٢٠، صفحة ٢٤، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٤٣، ١٣١).

ينفي ضياء خضير انطباق مقولة الشاعر المصري الراحل أمل دنقل، في إحدى قصائده، من "إن اليسار لفي عسر، وإن اليمين لفي خسر"، على هذين الشاعرين اللذين ما كان الشعر الحقيقي بالنسبة إليهما، في يوم من الأيام، موضوعا لربح أو خسارة، على الرغم من أن هذا (العسر) الناتج عن ضيق الفضاء الشعري يبقى قاسما مشتركا لدى كل الشعراء الكبار مثلما هو لديهم. وإذ نراهما يتعادلان الآن، في هذا العمر المتأخر... ندرك دائما أنهما رابحان فقط، عبر نافذة القول الشعري، الذي كرسا له عمريهما، مثلما نعرف أنهما لم يوظفا مشروعهما الإبداعي في غير خدمة الوطن وحرية إنسانه ورؤية الأفق الإنساني والوجودي المضطرب حولهما.

يطلق ضياء خضير تسمية (قصائد العزلة) على قصائد سعدي يوسف الأخيرة التي نظمها في أيام جائحة كورونا، ومنها قصيدة (منظر... ورؤية الشاعر المخلوق في التيه)، حيث كثف فيها الشاعر نتاجه الشعري كأنه يثبت تواصله مع هذه الحياة واستمراره في مراقبة مظاهرها بتصميم وإرادة. (خضير، سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة، ٢٠٢٠، صفحة ٥٣).

وهذا أمر يكاد يكون طبيعياً؛ فسعدي يوسف كونه يشعر بما لا يشعر به غيره تتغذى روحه من كل شيء حوله، أليس هو القائل: "تربطني بالموت علاقة حميمة، اعرف ملامحه من خلال موت الذين أحببتهم". (المطبعي، ١٩٩٠، صفحة ١٨).

فكيف إذن سيكون في عزلة الموت؟

فليس هذا بالجديد على تجربة الشاعر الكبير سعدي يوسف التي تعد من التجارب المؤثرة في الشعرية العربية، فتوقف النقاد، والدارسون عند هذه التجربة الثرية في ميدان الشعر الحديث، باعتباره واحداً من أبرز شعراء الحداثة الشعرية العربية.

يحاول ضياء خضير تحليل اثنتي عشرة قصيدة فضلاً عن مختارات مختلفة من قصائد سعدي يوسف، وقراءته لديواني السونيت والبند والتوقف عندهما، واستدكار بعض القصائد المشابهة لشعراء آخرين.

إن ابرز ما يميز نقد ضياء خضير انه يوظف المقارنات في محاولاته تحليل المختارات الشعرية من نصوص سعدي يوسف، ففي تحليله قصيدة (دوحة الكستناء، انتظار الثمرة بعد سقوط الشجرة) يشير ضياء خضير "الى ان قصيدة سعدي يوسف هذه تذكرنا بقصيدة الشاعر الامريكي Henry Wadsworth Longfellow (المسماة قرية الحداد The Village Blacksmith) التي كتبها عام ١٨٤٢ للتعبير عن حزن الشاعر وألمه لتحول دوحة الكستناء تلك التي يعرفها مثلما تعرفها قرية الحداد، والحداد نفسه الذي كان يستظل بظلالها، الى قطع من الخشب يصنع منه الكرسي الذي يجلس عليه الشاعر". (خضير، سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة، ٢٠٢٠، صفحة ٤٠).

ثم يردف بعدها "وليس بين قصيدتي الشاعر العراقي والشاعر الأمريكي من علاقة في غير الموضوع الخاص بموت هذه الشجرة أو سقوطها". (خضير، سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة، ٢٠٢٠، صفحة ٤٠)

كما يعقد ضياء خضير مقارنة بين سعدي يوسف ووليم وردزورث ومحمود درويش، ومحمود البريكان:

"وهذه القصيدة تذكرنا بقصائد شعرية أخرى عديدة موضوعها هذه الفراشة، منها فراشة الشعر الإنكليزي المعروف وليم وردزورث William Wordsworth التي يقول فيها:

تعالى غالبا عندما تشائين، حطي هنا دون خوف، على الغصن بالقرب منا!

لنتحدث عن الشمس، عن الشكاوى،

عن أيام طفولتنا الحلوة، عن أيام الصيف الخوالي

وقصيدة محمود درويش (أثر الفراشة) التي يقول فيها:

أثر الفراشة لا يرى

أثر الفراشة لا يزول

هو جاذبية غامض

يستدرج المعنى، ويرحل

حين يتضح السبيل

هو خفة الأبدى في اليومي

أشواق الى أعلى

وإشراق الى جميل". (خضير، سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة، ٢٠٢٠، الصفحات ١٤٠-١٤١)

بعد أن يحلل ضياء خضير قصيدتي سعدي يوسف ومحمود درويش، يرى أن صورة الفراشة عند سعدي يوسف تمثل لغة متحركة وطائرة ترفرف دون أن تمسك بمعنى أو رمز فهي نحلة بجناحي ملاك، ويشبها بالشاعر نفسه ثم يتعدى الأمر الى تشبيهها بالمرأة الأميرة التي تختار أحدهم من الحانة.

ثم يتجاوز تحليل قصيدة وردزورث بعد أن أوردتها، لينتقل الى قصيدة محمود درويش (اثر الفراشة) إذ إن الفراشة غدت تعبيراً عن جوهر الوجود وجماليته المتسمة بالغموض.

ثم يورد نصاً شعرياً عن الفراشة أيضاً دون أن يرجعه الى ناظمه:

"هل رأيت الفراشة، وهي تراك؟

الفراشة كانت ترف

ترفرف

لكنها الآن مشغولة بسواك...

الفراشة لا تأمن

الفراشة تؤمن.. الخ.."

ثم يسترسل في تحليله حتى يصل الى قصيدة محمود البريكان فيسبقها بالقليل من التحليل " ذلك النفق اللولبي المظلم الذي تسقط فيه فراشة البريكان:

"الفراشة لا تستطيع القراءة

رفت بكل رشاقتها

دخلت وهي ترقص وانطلقت في رحاب المكان

...

وكانت هناك

على الأرض، تزحف

نصف فراشة". (خضير، سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة، ٢٠٢٠، الصفحات ١٣٧-١٤٥)

ويترك ضياء خضير في مقارنته هذه الحكم مستغلقا على القارئ دون أن تتضح دلالات صورة الفراشة عند أي شاعر من هؤلاء الشعراء.

وتكرارا لمحاولاته التي خاضها مع الشاعر العراقي سعدي يوسف، عاد ضياء خضير ليخوض غمار المحاولة نفسها مع شاعر عراقي آخر هو حميد سعيد، لينتج منها هذه المرة كتابا نقديا آخر يحمل عنوان "المعلقة البغدادية.. محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد".

وما انجزه ضياء خضير في دوحة الكستناء من محاولات، لا يختلف عن محاولاته التحليلية في المعلقة البغدادية، من احتفاء بقراءة شاعر من خلال قصائده، هادفا من ذلك تقريب النص الشعري من أفق المتلقي وزيادة فعاليته وتأثيره. (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، صفحة ١٢).

تناول فيه ما يقرب القصائد العشر من أواخر ما نظمه الشاعر بعد رحيله عن وطنه ومدينته، تناولها ضياء خضير بالنقد والتحليل، فضلا عن وقوفه عند القصيدة التكعيبية ورومانسية حميد سعيد، إذ المواقف الإنسانية تعد من المصادر الأكثر دورانا في شعره.

إن الولوج الى عوالم حميد سعيد يحتاج الى أدوات متفردة، وإن "من أول قراءة لشعر حميد سعيد، تتكشف الرؤيا الشعرية لتفصح من خلال صفائها ووضوحها، عن شفافية تجعل القارئ معنيا في المقام الأول بتركيز جل

اهتمامه على الخطاب الشعري نفسه، بل على شيء يتبدى من ورائه، في ضوءه تتبلور ماهية القصد الذي يتوخاه الشاعر". (محمد، د.ت، صفحة ٩).

وحميد سعيد باعتباره واحدا من أبرز شعراء الحداثة الشعرية العربية، قد ترك تأثيرا في فضاء الشعر الواسع، إذ يعد واحدا من الأسماء الهامة لما قدمه من تجربة مختلفة في نصه وفي حضوره الثقافي، ويرى دكتور محسن اطيماش: "إن منهج حميد سعيد... شأنه شأن شعراء جيله كلهم مكتفا مغلفا برموز لا تعين القارئ على استجلاء المعنى بصورة تامة". (اطيماش، ١٩٨٢، صفحة ٦٩).

وكما اختار إحدى قصائد سعدي يوسف عنوانا لمحاولاته (دوحة الكستناء)، يختار ضياء خضير (المعلقة البغدادية) عنوانا لتحليل قصائد حميد سعيد، وهو يورد هذه القصيدة "رؤى بغداد" في ثمان صفحات من كتابه ويطلق عليها تسمية المعلقة البغدادية لأنها بنظره تنتظم بالشكل والأسلوب العام في اطار المعلقات الجاهلية من وقوف على الطلل واستعراض لذكريات مضين فيه وحنين. (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، صفحة ٢٩)

وقد وصف ضياء خضير القصيدة بأنها: "ألقت جسرا يمتد بين شاطئين يفصل بينهما مكانان وزمانان مختلفان يضع الشاعر على أحدهما قدما، وعلى الجانب الآخر قدما أخرى، لرؤية التيار المتدفق بينهما للتاريخ والحاضر، الذي عاشته وتعيشه مدينته الحبيبة بغداد، ووطنه العراقي كله من خلالها". (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، صفحة ١٧)

ومن قصيدة رؤى بغداد:

توقظه بغداد صباحاً..

يفتَحُ عينيه..

يرأها..

فَيَقْبَلُ جَبْهَتَهَا..

وَيَشُمُّ عَرَارَ جَدَائِلِهَا وَقُرْنُفَلَ ضَحْكَتِهَا..

وَأَرِيحَ صِبَاها

يَسْمَعُ وَقَعَ خُطَاها

في الروح.. من الباب الشرقي إلى الميدان

يا ما كان

رافقها من بستان الخس إلى بستان الخاتون

ومن خضر الياس إلى حنّون

ما زالت تفتح باب الأحلام.. على الأحلام..

فَيَغْمُرُها عِطْرُ العودِ ورائحةُ الهيل

وحكايات..

يرويها عبود الكرخي نهاراً

وتُغَنِّيها ليلاً..

بمضيف أبو عبيد صديقة الملائة

يتخيّلها امرأة تجمع بين بداوة طلتها..

وطراوة فتنّتها..

تَسْتَوْفِقُها دجلة بين الضفتين

تتجلى في الموج المتكبر..

...

أكانت تعرف أن مفاتيها.. توقظ حتى رغبات الجدران

اهي جنان؟

تصب الماء على الماء

وينسد الليل على العاج..

تغني بين أصابعها الحناء

.....

.....

تقترب القافلة البصريّة من باب السلطان

يفارقها الجاحظ في الميدان

ويدخل سوق الوراقين..

يحاوّر في بيت الحكمة..

كتاب الهند.. فلاسفة اليونان.. مقولات الصين

يعاتبه البخلاء..

ويقرأ عنه الناس روايات التبيين. (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، الصفحات ٢١-٢٤).

يرى ضياء خضير ان ثمة تشابها بين مقدّمة (رؤى بغداد) ومقدّمة بدر شاكر السيّاب (أنشودة المطر)، اذ يقول: "ونحن نعلم كيف أن بعض النقاد قد وقف على مقدمة قصيدة السياب (أنشودة المطر) التي يوجه الشاعر في مطلعها الخطاب الى امرأة، بصفة مباشرة أو غير مباشرة، والى مدينته البصرة، بوصف ذلك نوعا من المقدمة الطللية، التي يتتبع فيها الشاعر، بطريقته الخاصة، رواسم القصيدة العربية القديمة ويبني قصيدته على غرارها من الناحية الشكلية". (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، صفحة ٣٠).

وهذا تشبيه مفتعل ولا يحمل شيئا من الإقناع، وفيه يتخطى ضياء خضير طور الاستشهاد، وإنما يزج بالتشبيه دونما وجه شبه، وكان الأولى ان يتجاوز ذلك، ويكتفي بكلامه عن الشاعر الجاهلي، وكيف كان حريصا على تحديد الأماكن المرافقة لوقوفه على الطلل واستنكار أماكن أخرى أحالته حالة التأمل والشعرية العالية إليها، كما فعل حميد سعيد حين أبدى مثل ذلك الحرص عندما ذكر الأطر المكانية لوقفاته الطللية، من الباب الشرقي إلى بستان خاتون. كما انه أورد معالم تشير لتاريخ بغداد فضلا عن حاضرها، مثال ذلك ذكره (جنان) جارية أبي نواس، وأسواق الوراقين في بغداد، وغيرها من الصور التي تمكن المتلقي من استشعار الطلل في القصيدة.

مما تجدر الإشارة إليه وجود تكرار لقصة بشر الحافي في غير موضع من الكتاب لعل الزمن اعجل على تصحيحها وعلى تنسيق الكتاب بصورة أدق مما أخرج (خضير، المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد، ٢٠٢١، الصفحات ١٨-١٩، ٤٢).

ينسلت ضياء خضير من المسؤولية النقدية في كتابيه بتصريحه: "ما حاولت إنجازه في هذا الكتاب النقدي ذي الطبيعة التحليلية الخاصة بشعرية حميد سعيد لا يختلف كما قلت في المقدمة عن ذلك الذي حاولته في كتابي السابق عن سعدي يوسف، أعني الاحتفاء بقراءة الشاعر من خلال قصيدته المفردة... بعيدا عن أية مزاعم منهجية مسبقة وادعاءات زائدة وألغيب نقدية غير ضرورية".

وهذا لا يجعله في مأمن من المسائلة النقدية، لأنه يصف كتابه بـ(النقدي) في غير موضع من الكتاب.

الخاتمة:

يشغل البحث في ميدان نقد النقد، إذ يتناول الجهد النقدي للباحث ضياء خضير، متخذاً من اشتغاله على الشعر العراقي أنموذجاً، كان لابد للبحث من المرور على حياة المؤلف، وإعطاء نبذة عن هذا الباحث العراقي، ومن أين استقى ثقافته، وكيف عكست تلك الثقافة واقعه الاجتماعي والشخصي، كما يبين البحث أساتذة الباحث ومن كانت لهم اليد الفضلى في مشواره في قسم اللغة العربية.

عرج البحث على مفهوم نقد النقد، ومتى بلج هذا الحقل المعرفي، والفرق بينه وبين النقد، إذ يعد نقد النقد أوسع وأشمل من النقد، نشاط معرفي ينصرف الى مراجعة الأقوال النقدية كاشفاً عن سلامة مبادئها النظرية وأدواتها التحليلية وإجراءاتها التفسيرية، وأينما وجد الإبداع وجد النقد، كما ان نقد النقد ممارسة ثقافية معاصرة تروم وضع الخطابات النقدية موضع المساءلة والفحص لغاية الكشف عن هوية العلاقات التي تربط بين عناصر تلك الخطابات، وكذلك السعي الى الكشف عن الهويات الحقيقية لتلك الخطابات، مما يؤذن باكتشاف الوظائف المتعددة التي قامت بها تلك الخطابات في سياقاتها الثقافية والاجتماعية.

حاول ضياء خضير مع منجز شاعرين كبيرين لهما حضورهما في رهان الثقافة العربية من خلال جهديهما المعرفي الذي امتد على بحر عدد من العقود، ونالت تجربتهما الشعرية اهتمام الدرس الأكاديمي ومتابعات النقد الرصين وانتباه المستعربين ودارسي الشعر العربي المعاصر، فأخرج كتابيه:

سعدي يوسف دوحة الكستناء، وكتاب المعلقة البغدادية، وهما كتابان ذوا طبيعة نقدية تحليلية، يتشابهان في آلية الانتقاء والاشتغال والمنهج.

قام هذان الكتابان على النقد التطبيقي من خلال التحليل النصي لقصائد الشعراء، إذ ينتقي فيهما ضياء خضير قصائد مختلفة دون أن يحدد أسباب انتقائه لتلك القصائد.

وكان سبب انتقائه لهذين الشاعرين من بين الشعراء العراقيين، تلك الوشائج التي جمعتهم فكان ما كان من رابطة الصداقة التي تربطه بالشاعرين وما كان بينهم من رسائل وذكريات. حاول ضياء خضير تحليل اثنتي عشرة قصيدة فضلاً عن مختارات مختلفة من قصائد سعدي يوسف، وقراءته لديواني السونيت والبند والتوقف عندهما،

واستذكار بعض القصائد المشابهة لشعراء آخرين، وإن ابرز ما يميز نقد ضياء خضير انه يوظف المقارنات في محاولاته تحليل المختارات الشعرية من نصوص سعدي يوسف، وما انجزه ضياء خضير في دوحة الكستناء من محاولات، لا يختلف عن محاولاته التحليلية في المعلقة البغدادية، من احتفاء بقراءة شاعر من خلال قصائده، هادفاً من ذلك تقريب النص الشعري من افق المتلقي وزيادة فعاليته وتأثيره. وحמיד سعيد باعتباره واحداً من أبرز شعراء الحداثة الشعرية العربية، قد ترك تأثيراً في فضاء الشعر الواسع، اذ يعد واحداً من الأسماء الهامة لما قدمه من تجربة مختلفة في نصه وفي حضوره الثقافي، وكما اختار ضياء خضير إحدى قصائد سعدي يوسف عنواناً لمحاولاته (دوحة الكستناء)، يختار ضياء خضير (المعلقة البغدادية) عنواناً لتحليل قصائد حميد سعيد.

ينسبت ضياء خضير من المسؤولية النقدية في كتابيه بتصريحه ان ما حاوله في كتابه كان بعيداً عن أية مزاعم منهجية مسبقة وادعاءات زائدة وألاعيب نقدية غير ضرورية، على ان هذا لا يجعله في مأمن من المساءلة النقدية، لأنه يصف كتابه بـ (النقدي) في غير موضع من الكتاب.

مصادر البحث:

- جابر عصفور. (١٩٩١). قراءة التراث النقدي (المجلد الأول). مؤسسة عيال للدراسات والنشر.
- حميد المطبوعي. (١٩٩٠). موسوعة المفكرين والادباء العراقيين. دار الشؤون الثقافية العامة.
- دكتور محسن اطيّمش. (١٩٨٢). دير الملاك، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر. منشورات وزارة الثقافة.
- سامي سليمان احمد. (٢٠٠٨). افاق الخطاب النقدي دراسات في نقد النقد المسرحي العربي (المجلد الأول). القاهرة: مكتبة الانجلو.
- ضياء خضير. (٢٠٢٠). سعدي يوسف دوحة الكستناء، محاولات في تحليل القصيدة. بغداد: دار الكتب والوثائق.
- ضياء خضير. (٢٠٢١). المعلقة البغدادية، محاولات في تحليل قصائد حميد سعيد (المجلد الأول). عمان: دار دجلة.
- ضياء خضير. (٢٠٢٢). نجوم منطفئة في سماء ذاكرة الغريب (المجلد الأول). بغداد: منشورات اتحاد الادباء.
- عبد الله ابراهيم. (١٩٨٨). اتجاهات الغزل في الشعر العراقي الحديث. الاقلام، العدد ٤، ١ ابريل.
- عبدالمملك مرتاض. (٢٠٠٦). في نظرية النقد (المجلد الأول). القاهرة: المجلس الاعلى للثقافة.

- محمد شوقي الزين. (٢٠١٨). نقد العقل الثقافي (المجلد الأول). سلسلة اخوان الصفا وخلان الوفاء.
- معين جعفر محمد. (د.ت). الضوء والشرفة، جدلية الاستثنائي والمألوف في شعر حميد سعيد. الموسوعة الصغيرة.
- نواف نصار. (٢٠٠٩). معجم المصطلحات الادبية (المجلد الأول). عمان : دار المعتز.